الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

التجارة الرشيدة

تحويل عثمان بن عفّان تجارته لوسيلة للقرب من الله وخدمة الناس

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في زمن تتسارع فيه وتيرة الحياة التجارية، وتتعقّد فيه المعاملات الماليّة، وتتنوّع أساليب الكسب والاستثمار، يقف التاجر المسلم أمام تحدّيات عديدة:

كيف يمكنه أنْ يوفّق بين الربح المشروع والقيم الإسلاميّة؟

وكيف يحقّق النجاح الماديّ دون التفريط في المبادئ الأخلاقيّة؟

وكيف يجعل من تجارته عبادة وقربة إلى اللّٰه عزّ وجلّ؟

إنّ الإجابة على هذه التساؤلات تكمن في دراسة نموذج فريد من نماذج التجارة الإسلاميّة الرشيدة، ألا وهو نموذج عثمان بن عفان (ذي النورين) - رضي اللّٰه عنه - الذي استطاع أنْ يكون من أثرى أثرياء عصره، وفي الوقت ذاته من أكثرهم بذلاً وعطاءً في سبيل اللّٰه...

إذ لم يكن عثمان - رضي اللّٰه عنه - مجرّد تاجر ناجح، بل كان رائد أعمال بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، فقد كان يملك رؤية إستراتيجيّة، وحكمة في الاستثمار، وأخلاقاً عالية في التّعامل، وقبل ذلك كلّه إيماناً راسخاً جعل من تجارته وسيلة للقرب من اللّٰه وخدمة الناس... فضلاً عن قيامه ببناء إمبراطوريّته التجاريّة على عدد من الأسس الإيمانيّة..

وأولى هذه الأسس، رأس المال الطيّب والحلال، فقد كان أول ما ميّز تجارة عثمان - رضي اللّٰه عنه - حرصه الشديد على أنْ يكون رأس ماله من مصدر حلال خالص دون شبهات، ففي عصر كان فيه كثير من التجار يتساهلون في مصادر أموالهم، كان عثمان يقف شامخاً بمبدأ لا يتزعزع: لا مال إلاّ من حلال، فلم يدخل في تجارة محرّمة قطّ، ولم يربح من طريق غير مشروع، ولم يتعامل بالربا أو الغرر أو الغش، فقد كان يدرك أنّ الطيب في الأصل هو أساس البركة في الكسب والإنفاق، وهو السبب في زيادة الثروة، وهذا المبدأ ليس قاعدة أخلاقيّة وحسب بل هو إستراتيجيّة اقتصاديّة ذكيّة، فالمال الحلال يجلب البركة....

وثاني هذه الأسس، النظرة الإستراتيجية والاستثمار في المستقبل، إذ لم يكن عثمان - رضي اللّٰه عنه - تاجراً تقليدياً يكتفي بالبيع والشراء اليوميّ، بل كان صاحب رؤية استثماريّة ثاقبة تتطلّع إلى المستقبل البعيد، وخير تمثيل لهذه الرؤية الإستراتيجيّة هو قصة شراء بئر رومة في المدينة المنورة، فعندما اشتدّ العطش بالمسلمين في المدينة، قام بشراء بئر كاملة بمبلغ ضخم، ومن ثمّ جعلها وقفاً للمسلمين يشربون منها دون مقابل، فهذا نموذج فريد للاستثمار الواعي الذي يجمع بين المصلحة الشخصيّة والعامة، بين الربح الماديّ والثواب الروحيّ، بين النجاح التجاريّ والخدمة المجتمعيّة....

وثالث الأسس، التجارة مع اللّٰه، فقد كان أعظم ما ميّز عثمان - رضي اللّٰه عنه - في تجارته أنّه لم يجعل الربح المادي هدفه الوحيد، بل اعتبر تجارته وسيلة للتجارة مع اللّٰه عز وجل، فقد كان ينظر إلى كلّ صفقة تجاريّة على أنّها فرصة للاستثمار في الآخرة....

وهناك أساس الاستثمار في النصر والجنة، من خلال قيامه بتجهيز جيش العسرة، إذ أنفق لتجهيز ثلث الحملة كاملة: تسعمئة وخمسين بعيراً مُحمّلة بالطعام والسلاح والمؤن، بالإضافة إلى خمسين فرساً،وهذا المبلغ الهائل كان يمثّل جزءاً كبيراً من ثروته، لكنّه لم ينظر إليه كخسارة، بل كاستثمار في أعظم مشروع، وهو مشروع نصرة دين اللّٰه، وقد كان الجزاء من جنس العمل، فدعا له النبيّ ﷺ بدعوة عظيمة: "غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا عُثْمَانُ مَا أَسْرَرْتَ وَمَا أَعْلَنْتَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، مَا يُبَالِي عُثْمَانُ مَا عَمِلَ بَعْدَ ذَلِكَ".

إلى جانب أساس استدامة الأجر والنفع، فلم يكتفِ عثمان بالصدقة المباشرة، بل أسّس نظاماً متطوّراً للوقف الخيريّ، وجعل من أملاكه التجاريّة أوقافاً خيريّة تستمرّ في النفع والأجر حتى بعد وفاته، فما تزال بئر رومة، التي اشتراها وأوقفها للمسلمين، تنتج الماء حتى اليوم بعد أكثر من 1400 سنة....

فضلاً عن أساس الأمانة والصدق والشفافية كمعايير لرأس المال المعنوي، ففي عالم التجارة، الثقة هي العملة الأغلى والأثمن والأندر، وقد كان عثمان - رضي اللّٰه عنه - أغنى الناس بهذه العملة، فكان مضرب المثل في الأمانة والصدق، حتى لُقّب بالتاجر الأمين، فلم يكذب في بيع أو شراء قطّ، وكان يذكر عيوب البضاعة قبل أنْ يسأله المشتري عنها، ويبيّن الحقائق كاملة حتّى لو أدّى ذلك إلى تقليل الربح، وكان يلتزم بكلّ اتفاق يقطعه على نفسه، فإذا وعد التزم ولم يخلف، فكانت النتيجة أنّه اكتسب ثقة الجميع، فكانت أعظم رأس مال معنوي يملكه، وكان الناس يثقون به وبأمواله وبتجارته، ممّا وسّع دائرة عمله وجعل تجارته تزدهر ..

كما والتزم عثمان بأساس إتقان العمل وإدارته بحكمة، فلم يكن الإيمان والأخلاق عنده بديلاً عن الكفاءة المهنيّة، بل كانا مصدر إلهام لتطوير أعلى مستويات الاحترافيّة في العمل، فقدكان مديراً حكيماً لأمواله وأعماله، ولدى اختياره لشركائه كان يختار وفقاً لمعيار الدين والأمانة والكفاءة، فضلاً عن أنّه لم يكن يضع أمواله كلّها في استثمار واحد، بل نوّع استثماراته فكانت بين التجارة والزراعة والعقارات، وكان يتعامل في سلع ذات طلب مستمرّ، ويبتعد عن المغامرات غير المحسوبة، إلى جانب ذلك كلّه فقد كان يأخذ بالأسباب ويتوكلّ على اللّٰه، ويعمل ويتعب ويخطّط، ثم يتوكلّ على اللّٰه حقّ التوكلّ...

وبعد،

ومن خلال سبر أغوار هذه الأسس، فقد أمكننا عكس هذه الأسس على واقعنا اليوم، فالتاجر المسلم المعاصر يحتاج إلى البحث عن نماذج ملهمة تجمع بين النجاح المادي والالتزام بالقيم الإسلامية، وفي نموذج عثمان بن عفّان وجد إلهام قابل للتطبيق العمليّ بشكل كامل، فاستوجب على التاجر أنْ يتأكّد من أنّ كلّ ما يكسبه حلال طيّب، ويبتعد في تجارته عن الشبهات مهما كانت الأرباح مغرية، وليس هذا من منطلق المثالية، إنّما من منطلق إستراتيجية ذكيّة للنجاح طويل المدى، وعليه ألاّ يسعى للربح السريع، إنّما أنْ يفكّر في استثمارات تحقّق نفعاً مستداماً له ولمجتمعه، فيبحث عن أفكار ومشاريع تحلّ مشاكل حقيقيّة للناس، وعليه أنْ يجعل نجاحه التجاريّ وسيلة للقرب من اللّٰه، بتخصيص نسبة من أرباحه للأعمال الخيرية، والنظر إليها كاستثمار في الآخرة....

ARAB-PSF.COM

ورائد الأعمال المسلم، يستلهم من عثمان بن عفّان أسس مشاريع جديدة، وتطوير أساليب تجارية مبتكرة، وخلق فرص عمل للآخرين، فعليه أنْ يبحث عن طرق جديدة لتحقيق النفع العام من خلال مشروعه، ويبتكر في الخير، كما ابتكر عثمان نموذج الوقف التجاريّ، وعليه أنْ يجعل الأمانة والصدق علامته التجارية، فالسّمعة الطيبة أغلى من أيّ أصل آخر، وعليه التفكير في مشاريع تستمرّ في النّفع حتى بعد انتهاء عمله بها، وهذا هو معنى الصدقة الجارية في عصرنا الحالي....

والمستثمر المسلم، عليه أنْ يستلهم من نموذج عثمان، ويتعلّم دروساً قيّمة للاستثمار، فعليه بالتنويع الذكيّ بين القطاعات المختلفة، مع جعل جزء منها في مشاريع خيريّة لتحقيق عوائد أخرويّة، وعليه بدراسة المخاطر المالية والشرعية، فلا فائدة من استثمار مربح إذا كان محرّماً، وعليه بالبحث عن استثمارات تحقّق نفعاً للمجتمع، والابتعاد عن دعم الأنشطة الضّارة المؤذيّة مهما كانت أرباحها مغرية....

ختاماً،

فلم تكن ثروة عثمان بن عفان - رضي اللّٰه عنه - نتيجة حظّ أعمى أو مضاربة محظوظة أو حيلة تجارية ذكيّة، بل كانت ثمرة طيبة لشجرة مباركة غرسها بيديه على أسس إيمانيّة راسخة، فقد كانت ثروته مباركة لأنّها قامت على الحلال، ونمت بالصدق، وأُديرت بالحكمة، وأُنفقت في سبيل اللّٰه..

ولم تكن ثروته كثرة المال وحسب، إنّما كانت أداة للتغيير والعطاء، فالقيمة الحقيقيّة ليست في مقدار ما يملكه المرء، بل في كيفيّة إنفاقه، فعثمان (رضي اللّٰه عنه) لم يُذكر لأنّه كان الأغنى، بل ذُكر لأنّه كان الأكرم والأسخى، فلقد استثمر ثروته في بناء أمة، وفي كسب رضى اللّٰه ورسوله، فلم يكن همّه جمع المال لذات المال، بل كان يجمعه ليُنفقه في سبيل اللّٰه، ويستثمره في مشاريع تنفع الناس، ويوقفه ليبقى أجره جارياً إلى يوم القيامة، فهذه هي الثروة الحقيقيّة التي لا تقدّر بثمن، والتي خلّدت اسمه إلى يومنا هذا، وهذا هو النموذج الإسلامي الأصيل للثروة المباركة..

ثروة تنمو بالبركة، وتُستخدم في الخير، وتترك أثراً طيّباً يمتدّ عبر القرون...

وفي عصرنا الحاضر، فنحن أحوج ما نكون إلى استلهام هذا النموذج الرائد، لا لنقلّده تقليداً أعمى، بل لنفهم مبادئه ونطبّقها بأساليب عصرنا، ونجعل من تجارتنا وسيلة للقرب من اللّٰه وخدمة الناس، كما فعل عثمان قبل أربعة عشر قرناً، فالدّرس الأعظم من قصة عثمان أنّ ...

النجاح الحقيقيّ لا يكمن في كميّة المال المجموع، بل في كيفيّة جمعه وطريقة إنفاقه والأثر الذي يتركه في الدنيا والآخرة.

فهنيئاً لمن جعل من تجارته تجارة مع اللّٰه، ومن ماله وسيلة لخدمة دين اللّٰه وعباد اللّٰه، وهنيئاً لمن اقتدى بذي النورين في تجارته، فحقّق بركة الدنيا وفوز الآخرة ونوراً لقبره بينهما...